كما تحدث عن أحوال المسند إليه والمسند، من تقديم وتأخير وذكر وحذف، وتعريف وتنكير، ثم عن الاستفهام وخروجه عن معناه(١).

وقد استفاد الإمام عبد القاهر بآراء سيبويه، وأشار إليه فى الدلائل مرات بقوله: صاحب «الكتاب» كما ترى ذلك فى باب التقديم وباب الحذف(٢) وغيرهما كثير.

* **أبو عبيدة معمر بن المثنى** واضع كتاب «مجاز القرآن» وهو - وإن لم يقصد به المجاز بمعناه الفنى الذى عُرِفَ عند البلاغيين فيما بعد فقد وردت فى ثنايا كتابه مسائل بلاغية مختلفة لم يسمها هو باسمها وإنما نهج فى تحليلها نهجا بلاغيا بلا أدنى نزاع.

خذ إليك - مثلا - قوله تعالى: ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا** ﴾ [يوسف: ٨٢] بقول أبو عبيدة: مجازه، سل أهل القرية، ومن فى العير(٣).

وقال فى قوله تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم** ﴾ [يونس: ٢٢] من مجاز ما جاءت مخاطبته ومخاطبة الشاهد. ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب(٤)».

ويذكر فى عكسه - التحول من الغائب إلى الشاهد(٥) - قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ** ﴾ [القيامة: ٣٣-٣٤] وغير خاف أن البلاغيين المتأخرين قد دَعَوْا المثال الأول بالمجاز العقلى، والإيجاز بالحذف، كما دعوا المثالين الثانى والثالث بالإلتفات من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب، ولم يزيدوا على ذلك شيئاً.

والكتاب - بعد - حافل بمثل هذه اللمحات(٦) ولم نرد بما ذكرناه إلا مجرد التمثيل.

---

(١) نفس المصدر (جـ١ ص: ١٣٨ - ١٤٠ - ١٤١ - ٣١٨ - ٣١٩)
(٢) دلائل الاعجاز (٨٤ - ١١٢) تعليق رشيد رضا
(٣) مجاز القرآن (٨) (٤) مجاز القرآن (١١)
(٥) نفس الموضع
(٦) انظر مثلا (ص ١٩، ص ١٠) من نفس الكتاب

* **أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ** (م ٢٥٥ هـ) مؤلف كتاب «البيان والتبيين» و«الحيوان» وهو من هو فى الدراسات الأدبية والبلاغية حتى لتعد جهوده فيها ثروة ليس لها مثيل فى الكتابات المبكرة، وقد حفل كتابه «البيان والتبيين» بصور متعددة من المباحث البلاغية بالذات، كما تناثرت أمثلة منها فى كتابه «الحيوان» وخطا البحث البلاغى على يديه خطوات خالدة الأثر.

فقد تحدث عن مقتضى الحال ووجوب مراعاته، وعن صفات الألفاظ، وعن المجاز والاستعارة، والإيجاز والأطناب والتشبيه والسجع والازدواج، والكناية والتعريض عن البديع وشعرائه(١).

والواقع أن جهود الجاحظ فى الصور البلاغية يضيق عنها المقام هنا وهو بحق من رواد نظرية النظم التى تعهدها الإمام عبد القاهر من بعده حتى أصبحت دوحة وارفة الظلال، يانعة الثمار.

* **أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة** (م ٢٧٦ هـ) واضع كتاب: «تأويل مشكل القرآن» وقد بذل فيه المؤلف جهدا طيبا فى الدفاع عن القرآن ورد شبه الطاعنين، وإذا كان ابن قتيبة وكتابه هذا غنيا عن التعريف، فما يهمنا هنا أن نذكر أن المباحث البلاغية فى كتابه قد استبدت بمقدار كبير منه، وفيه تحدث عن:

المجاز، الاستعارة، المقلوب من الكلام، الحذف والاختصارو، التكرار، الأطناب، الكناية والتعريض، مخالفة ظاهر اللفظ معناه(٢).

كما تحدث عن الأدوات وَشَرحَ وجوه تضمينها المعانى المختلفة حسب ورودها فى آى القرآن الكريم سورة سورة.

* **أبو العباس عبد الله بن المعتز الشاعر الناقد الأديب**: (م ٢٩٦ هـ) واضع كتاب «البديع» أول مؤلف منهجى فى علوم البلاغة، كما يقول هو عن

---

(١) انظر فى هذا كله: البيان والتبيين جـ ١ صفحات: ١٤٤، ١٦١، ١٦٣، ١٦٥، ١٩٦، ـ وجـ ٣ صفحات ٣٠١، ١١٦ والحيوان جـ ٥ صفحات ٣٣، ٣٥، ٣٨.

(٢) تأويل مشكل القرآن (١٠٣ ـ ٢٩٨) تحقيق السيد أحمد صقر

نفسه: «وما جمع فنون البديع، ولاسبقنى إليه أحد(١)» ولكتابه هذا قيمة خاصة نوجزها فيما يلى:

أولاً: إنه أول كتاب فى التأليف البلاغى ذكر فيه مؤلفه فنونا بلاغية كانت نواة لمن جاء بعد، وهى خمسة فنون أطلق عليها اسم البديع وهى: الاستعارة، والطباق، والجناس، والمذهب الكلامى ورد الاعجاز على ما تقدمها ثم أردف عليها فنونا أخرى دعاها محاسن الكلام، منها: الالتفات، والاعتراض، وتجاهل العارف، وحسن التشبيه، والتعريض، والكناية، وتأكيد المدح بما يشبه الذم.

ثانياً: أنه أكثر من الشواهد المأثورة جامعا بين الشواهد القرآنية، وما هداه إليه نظره من الحديث الشريف، ثم الشواهد الشعرية والنثرية. وكان طويل الباع حقا فى كل ما عرض له.

ثالثاً: جعل هذه الفنون أساساً للنقد الأدبى، وقام هو بتأصيل هذه الفكرة، مثلما صنع فى التفرقة بين الاستعارة الجيدة، والاستعارة القبيحة، والطباق المحمود والطباق المعيب.

رابعاً: إنه ثروة لغوية وبلاغية ونقدية أبان فيه مؤلفه أن هذه الفنون وماشاكلها موجودة من قديم فليس لبشار ولا لمسلم بن الوليد، ولا لأبى نواس أن يدَّعوا أنهم أرباب البديع، وإنما كثر فى أشعارهم فعرفوا به، ولما كان هذا هو الهدف من وضع الكتاب أبان المؤلف أنه لم يقتصر على هذه الفنون جهلا منه بغيرها.

«وإنما غرضنا من هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع(٢)».

* **أبو الفرج قدامة بن جعفر** (م ٣٣٧ هـ) واضع كتاب «نقد الشعر» فى الأدب والنقد والبلاغة، وهو وإن لم يكن همه التأليف فى علوم البلاغة، فإنه

---

(١) البديع (ص ١)

(٢) البديع (ص ٣، ص ٥٧)

تطرق إلى الكثير من فنونها، منها التشبيه الذى عرفه وبين كيف يكون صحيحا ومثل له وذكر بعض أنواعه الجيدة(١).

كما ذكر المقابلة، والتتميم، والمبالغة، والتكافؤ(٢)، والالتفات(٣)، والأرداف، وهو الكناية عند البلاغيين، فقد مثل له بقول الشاعر:

بعيدة مهوي القرط إما لنوفل أبوها، وإما عبد شمس ولهاشم

ثم قال:

«أراد الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص به، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد، وهو بعد مهوى القرط(٤).

وهذا بعينه هو المعنى الكنائى عند البلاغيين المتأخرين. ومنها التوشيح والايغال، والطباق والجناس، وقد بلغت الفنون البلاغية ـ عنده ـ عشرين فنا.

بيد أنه قد اضطرب فى بعضها كما سبق أن ذكرنا أنه أطلق على بعض أمثلة الطباق اسم التكافؤ، ثم عاد وأدخل بعض أمثلة الجناس فى فن «الطباق» وعرفه تعريف الجناس(٥) كما صنع يقول الأقوه الأودى:

وأقطع الهوجل مستأنسا بهوجل عيرابة عنتريس

الهوجل الأولى: الأرض البعيدة، والهوجل الثانية: الناقة العطيمة.

وقد تعقبه أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى، وبين خطأه ولحاه، لأنه خالف من تقدمه، وما كان له ذلك(٦)!؟

* **أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى** (م ٣٧١ هـ) صاحب كتاب «الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى» وهو أحد مؤلفى أشهر كتابين عرفا فى القرن الرابع الهجرى حفلا بمسائل النقد والموازنة بين النصوص الأدبية وتحليلها

---

(١) نقد الشعر (١٢٤ ـ ١٣٣) ت: د. عبد المنعم خفاجى

(٢) والتكافؤ عنده هو «الطباق» عند البلاغيين، انظر نقد الشعر ص ١٤٧، وما بعدها

(٣) وهو غير الإلتفات الذى استقر أمره عند المتأخرين انظر كتابه (ص ١٥٠)

(٤) انظر كتابه ص (١٥٨)

(٥) نقد الشعر (ص ١٦٢) وما بعدها

(٦) الموازنة (جـ ١ ص ٢٩١) ت: السيد أحمد صقر

تحليلاً دقيقا واتخذا من الفنون البلاغية أساسا لصور من نقدهما، وتعانقت فيهما الوجوه البلاغية والقيم النقدية فى وضوح ورقة.

وأبو القاسم قد عُنِى فى كتابه بنقد اللفظ والمعنى معا، وهما لُحمة البلاغة والنقد وسداهما.

ومن أبرز ما تحدث عنه الآمدى: الطباق والجناس والاستعارة حسنِها ورديئِها، كما يضع تعريفا للبلاغة بعامة(١).

وأفاض الآمدى فى موضوع السرقات الشعرية(٢)» وهو موضوع تناوله البحث البلاغى فيما بعد، وعرض له الإمام نفسه(٣) ومما يؤخذ على الآمدى أنه يسرد النماذج سردا مجردا خالياً من أى توجيه، وأحيانا يكتفى بالتعليق الموجز عليها. ولو أنه فعل لكان كتابه أكثر قيمة مما هو عليه الآن، ومهما يكن فإن الكتاب ثروة عظيمة ويعد لبنة قوية فى تراثنا الأدبى والنقدى. وفن الموازنات.

* **أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى**: (م ٣٩٢ هـ) صاحب كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه» وكتاب الوساطة هو الكتاب الثانى بعد الموازنة فى إثراء الدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية والموازنات بين النصوص، نصب الإمام الجرجانى من نفسه قاضيا فى محكمة «الأدب» ليفصل بين المتنبى وخصومه.

ومعروف أن موضوع الكتابين: الموازنة والوساطة واحد ـ فى الغالب ـ وهو شعر المتنبى وشعر البحترى وأبى تمام، ولكن منهجى المؤلفين مختلفة، فبينما يظهر تعصب الآمدى للبحترى إذا بالجرجانى يسوى بين الشاعرين من حيث المبدأ ويجعل تقديم أيهما على الآخر تبعا لتفوقه عليه فى الاجادة والسلامة من العيوب.

البحترى أحسن حين قال:

ومثل نداك أذهلنى حبيبى وأكسبنى سلوا عن بلادى(٤)

---

(١) الموازنة (صفحات: ١٢٥ ـ ١٧٥ ـ ثم ص ١٨١ وما بعدها

(٢) الموازنة (جـ ١ ـ ٣١١) وما بعدها

(٣) أسرار البلاغة (٢٣٨) وما بعدها

(٤) ديوان البحترى: (جـ ١ ص ١٣٩)

وأبو الطيب أساء غاية الاساءة حين قال فى نفس المعنى:

أمُنْسىُ السكون وحضرموتا ووالدتى وكندة والسبيعا(١)

وأبو الطيب : أجاد وأحسن حين قال:

إذا كان شم الروح أدنى اليكم فلا يرحتى روضة وقبول(٢)

والبحترى أقل جودة حين قال فى نفس المعنى:

يذكرنا ريا الأحبة كلما تنفس فى جنح من الليل بارد(٣)

بهذا المنهج العادل مضى الجرجانى يصدر أحكامه النقدية بين الشاعرين وغيرهما من الشعراء الذين عرض لشعرهم(٤).

ومن أسس النقد التى أدار عليها الجرجانى الأمر فى كتابه الوجوه البلاغية كالاستعارة والتجنيس والطباق والتقسيم والتصحيف، وجمع الأوصاف وبراعة الاستهلال وحسن التخلص والخاتمة(٥).

كما أنه قد تعرض للفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ وهى مسألة بلاغية كثر الجدل حولها بعد الجرجانى ولم يتعرض لها أحد من قبله على الأطلاق وقد أشار هو إلى أن بعض من سبقه يخلطون بينهما حيث عد قول أبى نواس:

والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرقا

ثم بين فى وضوح الفرق بينهما(٦).

وقد تلقف الإمام عبد القاهر الجرجانى هذه الفكرة من يد القاضى على ابن

---

(١) ديوان أبى الطيب: (جـ ٤ ص ٦٦) والسكون وحضرموت وكندة ـ والسبيع أسماء مواضع.

(٢) ديوان أبى الطيب: (جـ ٣ ص ٩٦)

(٣) ديوان البحترى: (جـ ١ ص ١٣٦)

(٤) الوساطة (٢٦٩) وما بعدها. ط. الحلبى ت وشرح محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى. القاهرة.

(٥) الموازنة (٣٤ ـ ٤٨)

(٦) الموازنة (٢٤١)

عبد العزيز وقلب فيها وجوه القول واستبدت بقدر كبير من كتابه الأسرار[١]. وقد حملنا كثرة الخلاف فيها على وضع رسالة خاصة حاولت فيها الفصل بين الآراء[٢].

* **أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى** (م ٣٩٥ هـ) ذو المؤلفات العديدة فى اللغة والنقد والأدب ويهمنا فى هذا المجال «كتاب الصناعتين»: الكتابة والشعر، وهو أول كتاب منهجى بعد «بديع ابن المعتز» يخطو بالدرس البلاغى خطوات واسعة إلي الأمام، فبعد أن كانت الفنون البلاغية ثمانية عشر فى بديع ابن المعتز، وبلغت عشرين فنا فى كتاب قدامة بن جعفر «نقد الشعر» قفزت إلى خمسة وثلاثين فنا فى «الصناعتين» لأبى هلال، اطلق على جميعها اسم: البديع، وفيها مباحث بيانية ومعانية، وبديعية، فمن البيان عقد فصلا للاستعارة وذكر فيه كثيرا من مباحثها: الهدف: منها وفضلها على الحقيقة؛ والجامع فيها، والاستعارة المعيبة، وأفاض فى التمثيل لها من مختلف الكلام[٣].

ومن المعانى فصول لكل من: التذييل، الإيغال، التكميل، الاعتراض[٤] ومن البديع، وهو كثير فى كتابه، عقد فصولا لكل من:

الطباق ـ التجنيس ـ المقابلة ـ صحة التقسيم، وغيرها[٥].

هذا، وقد تعرض فى غير هذا الباب (الثامن) الذى وقفه على دراسة ألوان البديع، لفنون أخرى من البيان والمعانى والبديع فى بعض الأبواب التى تقدمت، فنراه قد عقد فصلا للتشبيه قلب وجوه القول فأجاد وأصاب، ثم عقد فصلا آخر تحدث فيه عن «التشبيه المعيب[٦]».

ومن المعانى تحدث عن الإيجاز والاطناب والمساواة.

ومن البديع تحدث عن السجع[٧]، وكان هذه الأنواع لا تدخل ـ عنده ـ فى

---

(١) أسرار البلاغة (٢٧٨) وما بعدها

(٢) التشبيه البليغ هل يرقى الى درجة المجاز ط دار الأنصار ـ القاهرة

(٣) الصناعتين (٢٧٤ ـ ٣١٥) ط: الحلبى ت محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى.

(٤) نفس المصدر صفحات: «٣٨٧ ـ ٣٨٩، ٣٩٠، ٤٠٤ ـ ٤٠٦، ٤١٠»

(٥) نفس المصدر (من ٣١٦ ـ ٣٥١)

(٦) نفس المصدر (من ٣٤٤ ـ ٣٦٥)

(٧) نفس المصدر (٣٦٦ ـ ٣٧٠)

معنى «البديع» الذى كان يطلق فى عهد أبى هلال على الصور البلاغية كلها. هذا عذره، وقد حفل كتابه بكل جميل فى فنى الكتابه والشعر، كما برزت الوجوه البلاغية ذات خطر عظيم فى ذوقه الأدبى ومنهجه النقدى وتعادلت فيه كفتا النقد والبلاغة.

فلا جَرَمَ أن يطبق ذكره الآفاق وأن يخترق مسامع الزمن، ويحل من الأرض فى كل مكان فيه عشاق للأدب وفنونه.

شىء من نقده:

قال: «فمن بديع التشبيه قول امرىء القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

فشبه شيئين بشيئين: الرطب بالعناب. واليابس بالحشف، فجاء فى غاية الجودة.

ومنه قول بشار:

كأن مُثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فشبه اظلمه الليل بعثار النقع، والسيوف بالكواكب، وبيت امرىء القيس أجود، لأن قلوب الطير رطبا ويابسا أشبه بالعناب والحشف من السيوف بالكواكب(١).

وأبو هلال ـ هنا ـ يسوى بين تشبيهى أمرىء القيس وبشار فى أن كلا منهما تشبيه مفردين بمفردين، وعلى هذا أقام نقده لهما. والمتأخرون على أن التشبيهين مختلفان.

فتشبيه أمرىء القيس من قبيل التشبيه المتعدد. أما تشبيه بشار فتشبيه مركب، المشبه فيه هيئة منتزعة من أمور عدة والمشبه به كذلك. ولو أن أبا هلال فطن لما لحظه المتأخرون لما رأى هذا الرأى بل لما قارن بين النصين أصلا، إذ لكل منهما منزع وغرض(٢).

---

(١) نفس المصدر (٢٥٦)

(٢) انظر فى النصين: الايضاح للخطيب (١٢٩، ١٣٩) وشروح التلخيص: جـ٣ ص: ٣٤٨، ٣٦١، واسرار البلاغة (١٥١ ـ ١٦٩) والعمدة: جـ ١ ص ٢٩٠.

* **أبو الحسن بن رشيق القيروانى (م ٤٦٣ هـ)** الأديب الناقد صاحب الكتاب القيم الذى ذاعت شهرته فى المغرب والمشرق، وحل لدى عارفيه المحل الأرفع: «العمدة فى صناعة الشعر ونقده»، وهو معاصر للامام عبد القاهر بيد أنه توفى قبله بثمانى سنين على المشهور وبخمس عشرة سنة على القول بأن وفاته كانت عام ٤٥٦ هـ، والأول هو أحد ثلاثة أقوال لابن خلكان(١)، والثانى هو اختفار ياقوت الحموى(٢)، وهو أحد الأقوال الثلاثة لابن خلكان.

والمؤلف ـ بعد بحوثه القيمة فى الشعر ـ عنى عناية فائقة بفنون البلاغة وله فيها جولات ممتعة حقا، وهو يطلع علينا ـ بين الحين والحين ـ بلمحاته النقدية المعبرة، جامعا بين صفاء ذوق الأديب، وحدة ذكاء الناقد والبصير بقيم الجمال فى العمل الأدبى والعيوب والمآخذ العالقة به، وكان للوجوه البلاغية دور جليل الشأن فى نقده وتوجيهه، والمطلع على كتابه بدرك أن الناقد الفنى شديد الحاجة إلى تلك الوجوه، وإلا كان كمن يتنفس برئة واحدة.

وفوق دراسته للألفاظ والمعانى فقد عقد أبوابا لفنون البديع قال فى مقدمتها:

«والبديع ضروب كثيرة، وأنواع مختلفة، أنا أذكر منها ما وسعته القدرة وساعدت فيه الفكرة إن شاء الله»(٣).

ثم يبدأ بباب «المجاز» ويعرفه ويقول أنه خاصية امتازت بها لغة العرب عن سائر اللغات. ويدافع عن المجاز فيرد على من يقول بأن المجاز ضرب من الكذب، ويستشهد فى رده «المقنع البليغ بكلام لعبد الله بن مسلم بن قنيبة ثم يورد صورا منه تردد بين المجاز العقلى، والمجاز بالحذف، والمشاكلة والاستعارة المكنية(٤).

ويتلوه باب الاستعارة ويورد أنواعا مشيرا إلى مختارها ومعيبها(٥) ثم باب

---

(١) ابن خلكان (جـ ١ ص ٣٧٧) ت: الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد.
(٢) معجم الأدباء (جـ ٨ ص ١١٠) وما بعدها.
(٣) العمدة: (جـ ١ ص ٢٦٥).
(٤) العمدة: (جـ ١ ص ٢٦٦ وما بعدها).
(٥) نفس المصدر: (جـ ١ ص٢٦٨ وما بعدها).

التمثيل، وباب الإشارة، ومنها التعريض والكناية والتلويح، وباب التتبع وقد جمع بين أمثلته صورا من الكناية، وأخرى من التشبيه وتحدث عن التشبيهات العقيمة. وأفاض فى باب التجنيس، ثم باب الترديد، وباب التصدير، وباب المطابقة، والمقابلة، وباب التقسيم وباب التسهيم، وباب الاستطراد، وباب الالتفات، وباب المبالغة... الخ(١).

والواقع أن ابن رشيق أكثر بصراً بفنون البلاغة ممن تقدم عليه وأن استفاد هو بآثارهم، وكان أمينا فى نقله عنهم، وكتابه يعد - فعلا - عمدة فى موضوعه، مثلما اختار له هو نفسه، ولا يمكن لكاتب أن يصف ذلك وصفا دقيقاً. فالكتابة عنه لاتسد مسد الرجوع إلى الكتاب نفسه.

شىء من نقده:

قال فى الاستعارة المختارة:

ومما اختاره ابن الأعرابى وغيره قول أرطاة بن سهية:

فقلت لها يا أم بيضاء أننى هريق شبابى واستشن أديمى

فقال: هريق شبابى لما فى الشباب من الرونق والطراوة التى هى كالماء، وقال: استشن أديمى، لأن الشن هو القربة اليابسة فكأن أديمة صار شنا «قربة يابسة» لما هريق ماء شبابه فصحت له الاستعارة من كل وجه ولم تبعد(٢).

وقال فى الاستعارة المعيبة:

ولو كان البعيد احسن استعارة من القريب لما استهجنوا قول أبى نواس:

بح صوت المال مما منك يشكو يصيح

فأى شىء أبعد استعارة من صوت المال؟ فكيف حتى بح من الشكوى والصياح؟ مع أن له صوتا حين يوزن أو يوضح.. لأن معناه لايتركب على لفظه إلا بعيدا.

وكذلك قول بشار:

---

(١) نفس المصدر (جـ١ ص ٣٠٢ - ٣٣٥ وجـ٢ ص ٣ - ٥٧).

(٢) نفس المصدر (جـ١ ص ٢٧٤).

وجذت رقاب الوصل أسياف هجرها وقدت لرجل البين نعلين من خدى

فما أهجن «رجْلَ البين» وأقبح استعارتها. ولو كانت الفصاحة بأسرها فيها، وكذلك رقاب الوصل(١)».

على هذا النهج مضى ابن رشيق ـ رحمه الله ـ فى عمدته.

* **الأمير أبى محمد عبد الله بن سعيد الخفاجى (م ٤٦٦ هـ)** مؤلف كتاب «سر الفصاحة» وللكتاب نصيب كبير من اسمه، فقد حفل بالدراسات اللغوية والأدبية والنقدية، وخاض مؤلفه فى كثير من مسائل البلاغة وأدت دورا ملموسا فى نقده، وبخاصة حين تناول أقوال فحول الشعراء(٢) ونقد كبار النقاد(٣)، بالإضافة إلى بحوثه الممتعة فى تحديد معنى الفصاحة فى المفردات والتراكيب، وبحثه فى المعانى، وتحليلاته الرائعة للكثير من النصوص صحيحها وعليلها.

وكتابه: «سر الفصاحة» من أروع ما أفرزته القريحة العربية فى القرن الخامس الهجرى، عصر عبد القاهر الجرجانى الذى شهد وثبات فتية فى النقد والأدب والبلاغة وكثير من العلوم الأخرى، وقد اعتصر رواده نتاج القرن الرابع، وتمثلوه خير تمثيل فصنعوا منه رحيقاً حلو المذاق طيب الشذا. مايزال العارفون يحمدون ورده.

شىء من نقد ابن سنان:

قال رحمه الله: «وقد كنت مثلت فى بعض المواضع للاستعارة المحموده والمذمومة ببيتين:

احدهما قول أبى نصر بن نباته:

حتى إذا بهر الأباطح والربا نظرت إليك بأعين النوار

فنظر أعين النوار من أشبه الاستعارات وأليقها، لأن النوار يشبه العيون، وإذا

---

(١) نفس المصدر (جـ ١ ص ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) مثل زهير، والنابغة، وامرىء القيس، وبشار والشريف الرضى.

(٣) مثل الصولى، والآمدى صاحب الموازنة.

كان مقابلا لمن يجتاز ويمر فيه كان كأنه ناظر إليه وهذه (هى) . . . الاستعارة الصحيحة الواضحة التشبيه .

والبيت الثانى قول أبى تمام :

قرت بقران عين الدين واشتترت بالاشترين عيون الشرك فاصطلما(١)

وقرة عين الدين، واشتتار عيون الشرك من أقبح الاستعارات، لعدم الوجه الذى جعل للدين والشرك عيونا . ومع تأمل هذين البيتين يفهم معنى الاستعارة، لأن النوار والشرك لاعيون لهما على الحقيقة، وقد قبحت استعارة العيون لأحدهما (الشرك) وحسنت للآخر (النوار) وبيان العلة فيه أن النوار يشبه العيون، والدين والشرك ليس فيهما ما يشبهها ولايقاربها وهذه طريقة متى سُلِكَتْ ظهر المحمود فى هذا الباب من المذموم(٢) » .

وبهذا التحليل والوضوح قطع ابن سنان رحلته الطويلة فى سر فصاحته .

* * *

(١) قران والاشتران : علمان . واشتترت : انقطعت واصطدم : استؤصل وابيد : يعنى أن الدين انتصر والشرك هزم .

(٢) انظر سر الفصاحة (١١٣ - ١١٤) ت : د . عبد المتعال الصعيدى .

obeikandl.com

دراسات فى الاعجاز على أسس بلاغية من الجاحظ الى عبد الجبار

أبرزنا فى الصفحات السابقة نمو المباحث البلاغية فى ظل الأعمال اللغوية والأدبية والنقدية، من عصر سيبويه إلى عصر ابن رشيق وابن سنان، وهما معاصران للإمام عبدالقاهر الجرجانى. ومؤلفات اللغة والأدب والنقد - عموما - كانت أرضا خصبة لإنبات الفنون البلاغية - كما رأينا - وبقى جانب واحد من النشاط العلمى والفكرى وكان مسرحا لإزدهار الفنون البلاغية. هو البحث فى إعجاز القرآن الكريم من الجاحظ إلى القاضى عبدالجبار (٢٥٥ - ٤١٥ هـ) وهى الفترة التى سبقت مباحث الإمام عبد القاهر فى المعانى والبيان وبعض فنون البديع، ولإيضاح عمل هذه الفترة نقول فى إيجاز:

أما الجاحظ فيكفى أنه وضع كتابه «نظم القرآن» وكان أول من اهتدى إلى فكرة النظم التى نمت وترعرت على أيدى من بعده كالواسطى، وعبد الجبار ثم الإمام عبد القاهر الجرجانى. وفى كتابه (البيان - والحيوان) إيماءات قيمة فى تحليل فكرة النظم ودلالات الألفاظ والتراكيب(١).

وتلا الجاحظ ابن قتيبة وقام بأعظم دراسة عن القرآن فى كتابه «تأويل مشكل القرآن» الذى تقدم الحديث عنه، وننقل منه هذا النص الذى لم نذكره هناك «وللعرب المجازات فى الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب - التقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح، والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع، والجمع خطاب الواحد، والواحد والجمع خطاب الإثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص وبكل هذه المذاهب نزل القرآن(٢).

وأتبع ابن قتيبة هذه الإشارات بشرح واف لها ولغيرها فكان كتابه ثروة فى دراسة أسلوب القرآن الحكيم أثابه الله خيراً على غيرته الواعية وحبه لكتابه الكريم ويجىء بعد ابن قتيبة أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطى (٣٠٦ هـ) ويضع

---

(١) انظر - مثلا - الحيوان (جـ ١ ص ١٥٣) و(٤ ص ٢٨٩) والبيان.. (جـ ١ ص ٣٣٢٨) و(جـ ٢ ص ٧) وما بعدها.

(٢) تأويل مشكل القرآن (١٥) وما بعدها.

كتابا فى إعجاز القرآن أفاد منه عبد القاهر الجرجانى بدليل أنه شرحه شرحين شرحا كبيرا دعاه: المقتضب، وآخر صغيرا[1]، وهذا الكتاب وإن لم نطلع عليه فلا نزاع أن له أثرا فى كتابات الإمام عبد القاهر التى من أجلها نكتب هذا الموضوع، لذا آثرنا الإشارة إليه هنا.

ويتلو الرمانى الواسطىَّ: (م ٣٨٦ هـ) فيضع كتابه: «النكت فى إعجاز القرآن» فيرجع الإعجاز إلى سبع جهات إحداها البلاغة ثم يهتم بهذه الجهة ويتحدث عنها من خلال عشرة وجوه هى:

«الإيجاز - التشبيه - الاستعارة - التلاؤم - الفواصل - التجانس - التصريف - والتضمين - المبالغة - حسن البيان[2]».

ثم يشرح هذه الوجوه العشرة وجها وجها فى إيجاز وإيضاح ويورد عليها كثيرا من الأمثلة القرآنية ويحلل كل مثال بما يشرح معناه ويقوى وجهة نظره هو.

ثم يأتى أبو سليمان محمد بن إبراهيم الخطابى (م ٣٨٨ هـ) ويضع كتابه: «إعجاز القرآن» ويوضح مذهبه فيه بقوله:

جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظم التأليف مضمنا أصح المعانى... وواضعا كل شيء منها فى موضعه الذى لايرى شيء أولى منه، ولايرى فى صورة العقل أمر أليق منه، مودعا أخبار القرون الماضية، ومانزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئا عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الباقية من الزمان، جامعا فى ذلك بين الحجة والمحتج له والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وأنبأ عن وجود ما أمر الله به ونهى عنه[3]».

ثم يمضى وينتهى إلى القول بأن القرآن هو أعلى مراتب الكلام مؤيدا بالدليل[4].

---

(١) انظر «اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ١٥» لمصطفى صادق الرافعى.
(٢) انظر «ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن» ص ٧٥ وما بعدها. ط دار المعارف القاهرة.
(٣) نفس المصدر (ص ٢٦) وما بعدها.
(٤) انظر (٣٦) من نفس المصدر.

* ويتناول قضية الإعجاز رجل من أعلام الاشاعرة أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (م ٤٠٣ هـ) ويخط كتابه «إعجاز القرآن» وهو سجل حافل بالدراسات الجادة والمادة الغزيرة والعرض الجميل والتحليل الممتع:

فقد فصل القول فى نظم سورتى غافر وفصلت، وسورة النمل، وعرض نماذج من خطب النبى عليه السلام وخطب أصحابه، كما عمد إلى عرض الكثير من أقوال الشعراء ونقدها، كما ذكر نماذج من قصيدة امرىء القيس: قفانبك. وبيَّن ما فيها من عيوب مع أنها معدودة من عيون الشعر، وكذلك لامية تأبط شرا وغيرهما.

و عرض أقوال القدماء فى معنى الاعجاز، ثم بسط القول حول الوجه الذى رآه معجزا، وهو يرجع إلى «**النظم العجيب والتصرف فى فنون القول**» ويشرح هذه الوجه فى عشر ة عناصر بيَّنها فى كتابه ثم اتبعها بشرح واف(١).

وأهم فصول الكتاب هو المعنون له بـ«البديع من الكلام» وقدم الكثير منه، وله فيه طريقتان:

إحداهما: أن يمثل وينص على اسمه كما فعل فى قول امرىء القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى

حيث قال: وذلك من الاستعارة الملحية(٢).

وكما سمى المبالغة بقوله: «ومن البديع عندهم الغلو والإفراط فى الصفة، وذكر من أمثلتها قول عنتره:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكى إلى بعبره وتحمحم(٣)

والثانية: أنه يكتفى بالتمثيل دون أن يسمى النوع المثل له كقوله: «ذكروا أن من البديع فى القرآن قوله جل ذكره: ﴿**واخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾ [الاسراء: ٢٤].

---

(١) اعجاز القرآن للبلاقى (٣٥ ـ ٥٠) ت السيد أحمد صقر.

(٢) نفس المصدر (٧١).

(٣) نفس المصدر (٧٧).

وقوله:[1] «ربنا تقبل توتبى، واغفر حوبتى[1]»

ومعروف أن الآية الكريمة من قبيل الاستعارة المكنية، أما الحديث الشريف ففيه جناس بين: «توبتى وحوبتى».

وظاهر أنه يطلق البديع على فنون «البلاغة» كلها معانى وبيانا وبديعا فقد ساق الحديث: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا يُسلم «ضمن أنواع البديع وهو مجاز عقلى من قبيل» المعانى، لأن التصرف فيه حصل فى الإسناد[3].

وبعد أن أفاض فى ذكره هذه الفنون أوضح أن الإعجاز ليس عن طريقها. والسبب ـ عنده ـ أن هذه الفنون المسماه بـ«البديع» يمكن حذفها والإجادة فيها، وقد حدث أن كثيرا من الشعراء استعملوها فى أشعارهم ما بين محسن ومسىء، كما فعل أبو تمام فى لاميته:

متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل وصدرك منها صدة الدهر آهل

والإعجاز لايكون إلا بأمور لم تجر بها العادة[4].

هذا غيض من فيض من جهود الباقلانى الرائعة حقا التى تعتبر تتويجاً للدراسات المتقدمة.

* **أبو الحسن محمد بن الطاهر الشريف الرضى** (م ٤٠٦ هـ) واضع كتابى: «تلخيص البيان فى مجازات القرآن» ثم «المجازات النبوية» وهو وإن لم يكن همه البحث فى «الإعجاز» فإن كتابيه يستحقان أن يذكر فى رصد البحوث البلاغية التى سبقت جهود الإمام عبد القاهر. وكلمة «المجاز» عند الشريف يختلف معناها عن المغنى الذى أراده أبو عبيدة منها فى كتابه «مجازات القرآن» المتقدم ذكره. أبو عبيدة يريد منها: التفسير والبيان سواء كان مجازاً بحق أم خلت منه.

أما الشريف فقد أراد المعنى المقابل للمعنى الوضعى، ولكنه لم يفرق تفرقة

---

(١) أى قول الرسول عليه السلام.

(٢) انظر (٦٦ ـ ٦٧).

(٣) نفس الموضع: يسلم: يقارب.

(٤) انظر فى البديع ورأى المؤلف فيه (٦٦ ـ ١١٢).

دقيقة بين أنواع المجاز فكله عنده استعارة حتى، أنه أدخل صور المجاز العقلى فى الاستعارة ولعله أوحى إلى السكاكى بهذه الفكرة فأنكر المجاز العقلى وأدخله فى صور الاستعارة المكنية كما هو معروف من مذهبه.

وقد تتبع الشريف القرآن سورة سورة ونص على ما فى كل سورة من مجاز أو كناية تراءت له.

وفى كتابه الثانى عمد إلى ذكر ثلاثمائة وستين نصا عزاها إلى النبى ﷺ وتمتاز بأنها عبارات قصيرة المبنى غزيرة المعنى واتبع كل نص منها ببيان ما فيه من مجاز، وظاهر أنه يجعل الكناية من المجاز. وقد صرح به فى مواضع مثل قوله عليه السلام:

«أسر عكن لحاقا بى أطولكن يدا» إذ قال فيه بعد أن فسره بالكرم «وكنايته عليه السلام عن هذا المعنى بطول اليد مجاز واتساع[1]».

والآثار التى ذكرها الشريف فى حاجة إلى تخرج فإن فيها نصوصاً مطعونا فيها. ولم أر أحدا من محققى الكتاب حرص على تخريج آثاره، ومن الطريف أننى توجهت بهذا السؤال: لِمَ لمْ تخرج الآثار التى وردت فى الكتاب إلى حد محققيه فقال:

لو خرجتها ما بقى منها إلا القليل..؟!

وبعد فإن جهود الشريف يمكن أن تكون الروافد التى سكبت ماءها فى قوارير الإمام عبد القاهر. لهذا آثرنا الإشارة إليها هنا.

* **القاضى أبو الحسن عبد الجبار الإسد أبادى المعتزلى**: (م ٤١٥ هـ)، وللإمام عبد الجبار صلة خاصة بكتابات الإمام عبد القاهر الجرجانى لسببين:

ثانيهما: أوثق عرى بها من أولهما.

فالأول: إن عبد الجبار أقرب المتقدمين إلى عبد القاهر زمنا إذ استثنينا معاصريه: ابن رشيق وابن سنان.

---

(١) المجازات النبوية (٥٩) ت: طه عبد الرءوف ط: الحلبى.

والثانى : إن عبد الجبار له تحليل دقيق فى نظرية « النظم » التى لهج بها الإمام عبد القاهر من بعده وأرجع أمر الاعجاز إليها .

وتقوم نظرية النظم عند عبد الجبار على الاعتبارات الآتية :

أولا : أن إعجاز القرآن ليس له من تفسير إلا فصاحته .

ثانياً : أن الفصاحة لا تظهر فى كلماته الأفراد ، وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة :

وتلك الصفة تكون بواحد من ثلاثة :

* إما أن تكون بالمواضعة .
* أو تكون بالإعراب الذى له مدخل بالضم .
* أو تكون بموضع الكلمة من الجملة .

ويعلق على هذا فيقول بالحرف :

« وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركتها أو موقعها ، ولابد من هذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لابد من إعتبار مثله فى الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض . . فعلى هذا الوجه الذى ذكرناه إنما تظهر الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها[1] » .

تلك خلاصة الرأى فى قضيتى النظم والاعجاز عند الإمام عبد الجبار ففكرة الفصاحة ـ عنده ـ على هذا التحليل الذى قدمناه إنما هى مرادفة لفكرة النظم ولأن الكلمة كثيرا ما تكون لها مزية على غيرها بحسب الوضع إما من حيث معناها أو من حيث بنيتها :

ولاتخال الإمام عبد الجبار بقصد من حركة الإعراب نفس الحركة من رفع أو نصب أو جر أو جزم ، وإنما قصده إلى كون الكلمة مرفوعة فهى مبتدأ أو خبر أو فاعل ألخ .

---

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل (جـ ١٦ ص ١٩٩) نقلا عن : البلاغة تطور وتاريخ (١١٧) د . شوقى ضيف .

وإلى كونها منصوبة فهى مفعول أو ظرف أو حال أو تمييز. إلخ.

وإلى كونها مجرورة فهى مدخول حرف جار، أو مضاف إليه.

وإلى كونها مجزومة فهى منهى عنها أو شرط وجزاء.. وهكذا.

أما موقع الكلمة فى الجملة فهو إما أصيل أو مزال بالتقديم أو التأخير.

وهذا هو التصرف فى الأسلوب الذى يتفاضل به الكلام، وتتبارى فيه المواهب، ويعلو كلام كلاما.

وعند هذا الحد الذى بدأناه بجهود سيبويه واختتمناه بجهود ابن رشيق، وابن سنان، وعبد الجبار. عند هذا الحد تتوقف المباحث الأدبية، والنقدية، والبلاغية، ومباحث الاعجاز ثم يجيء دور الإمام.

(دور الامام عبد القاهر)

ويبدأ دور الإمام عبد القاهر الجرجانى، وتظهر جهوده فى عملين جليلى الأثر: كتابه دلائل الاعجاز، ثم كتابه: أسرار البلاغة، فهو إذن لم يبدأ من فراغ. وكيف وقد تجمعت بين يديه ثمار أربعة قرون كان الرواد خلالها كخلية النحل يمتصون رحيق كل الأزهار ثم سكبوه شهدا وعسلا.

فما الذى صنعه الإمام عبد القاهر؟ أكان مجرد مقلد يدور فى فلك من سبقوه؟ أم أن صلته بهم كانت مبتوتة جملة وتفصيلا؟؟! أم أنه أخذ ممن قبله، وأعطى من بعده جديدا لم يعرف لغيره قط.؟!

التسليم بالقول الأول فيه حيف كبير بالإمام عبد القاهر، فهو لم يكن حاكيا لأدوار من سبقوه أو عالة على نتاجهم.

والتسليم بالثانى فيه مجانبة للصواب وإهدار لما بذله الرواد من جهود ماتزال انجما زهرا فى سماء العلم والمعرفة.

أخْذٌ.. ثم عطاء وتجديد

كان دور الإمام عبد القاهر هو دور الآخذ المعطى، ولكن الذى أخذه لا يضارع الذى أعطاه، فقد كان رحمه الله مجددا حتى فى مواضع الاشتراك التى كتب فيها هو، وكتب فيها من قبله من الرواد.

وكان مجددا فى المواضع التى انفرد بها هو، ولم يسبق لغيره الكتابة فيها.

فمن مواضع الاشتراك ـ مثلا ـ التشبيه[1]. ولكن عبد القاهر حين تناوله، تناوله تناول المجدد غير المسبوق، وفرق بين التشبيه والتمثيل تفرقه لم يعرض لها أحد ممن قبله، وعلى هذا الأساس كان الشعراء عنده نوعين:

شعراء تشبيه كابن المعتز، ثم شعراء تمثيل كصالح بن عبد القدوس[2] وفرَّق بين التشبيه ـ فى بعض صوره ـ وبين الاستعارة، وهو وإن استلهم هذه الفكرة من القاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى[3] فإن الإمام عبد القاهر يكاد يكون أول من بدأ البحث فيه لكثرة تحليلاته وتفصيلاته الرائعة حقا، وهو بدء قارب النهاية أو انتهى فعلا.

ذاك نموذج من مواضع الاشتراك. كان فيه الإمام عبد القاهر مجددا بلانزاع، ومضيفا إضافات حسنة لا يغنى عنها غيرها من بحوث مَنْ سبقوه بل ومن لحقوا به، وهى مغنية عن غيرها: سابق ولاحق.

أما الجديد الخالص فقد سلم له منه الكثير، ومن ذلك الجديد:

مبحث العلاقات بين الجمل

لم يكتشف باحث قبل الإمام عبد القاهر فكرة العلاقات بين الجمل، وما يترتب على تلك العلاقات من طرائق النظم والتأليف (العطف وترك العطف) أو: «الفصل والوصل» مثلما هو معروف الآن فى مصادر علوم البلاغة قديمها وحديثها. بيد أن هذه التسمية: الفصل والوصل قد ترددت فى كتب السابقين قبل عصر الإمام عبد القاهر، ولكنها لم يُرَدْ منها المعنى الدقيق الذى أرسى قواعده عبد القاهر، ونسج المتأخرون على منواله.

ويبدو أن أول من ذكرها هو الجاحظ ضمن النقول التى ساقها فى تعريف البلاغة إذ يقول:

---

(١) درس الامام عبد القادر التشبيه فى فصول متعددة كلها جدة وكادت تستبد بكتابه أسرار البلاغة (من ٧٠ الى ٢٠٦) ت: رشيد رضا.

(٢) أسرار البلاغة (٧٥) وما بعدها.

(٣) الوساطة (٤١).

« قيل للفارسى : ما البلاغة؟ قال : معرفة الفصل من الوصل[1] . . . » ووردت هذه العبارة بلا أدنى تغيير فى سر الفصاحة لابن سنان (ص٥٠) وفى الصناعتين لأبى هلال العسكرى حيث قال :

« قيل للفارسى ما البلاغة؟ قال : معرفة الفصل من الوصل[2] » وإذا كان الجاحظ لم يذكر شيئاً فى شرح هذه العبارة فإن أبا هلال قد شرحها شرحا يعد أقوى دليل على أنهم لم يريدوا منها ما أراده الإمام عبد القاهر فيما بعد . .

ومما ذكره قول الأحنف بن قيس : « ما رأيت رجلا تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام، ولاعرف حدوده إلا عمرو بن العاص رضى الله عنه[3] » .

وقول اكثم بن صيفى : « افصلوا بين كل معنى منقض، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعضه فى بعض[4] » .

وقول برز جمهر : « إذا مدحت رجلا، وهجوت آخر فاجعل بين القول فصلا حتى يعرف المدح من الهجاء، كما تفصل فى كتبك إذا استأنفت القول واستكملت ما سلف من اللفظ[5] » .

وحكى أن بعض الكتاب كان يفصل بين « الانات » ـ جمع إن ـ وبعضهم بين « الفاءات » ـ جمع فاء ش وبعضهم بين بل وبلى وليس[6] .

« وضح مما تقدم أن المراد بالفصل والوصل فى كتابات السابقين على الإمام عبد القاهر إنما هو الوقوف فى الفصل، وكر الكلام فى الوصل . هذا فى القول .

أما فى الكتابة فإن المراد إما قطع المعنى عن المعنى بحيث لايتوقف أحدهما على الآخر، وإما وضع علامة عند المواضع التى ينبغى فيها التوقف قليلا . . مثلما ما هو معروف فى آداب تلاوة القرآن الكريم من وقف وسكت أما الوقف فكما عند قوله تعالى : ﴿ **فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ [يس : ٧٦] حيث ينبغى الوقف على « قولهم » وتستأنف التلاوة بـ « إنا نعلم » وإذا

(١) البيان والتبيين (جـ ١ ص ٨٨) .
(٢) الصناعتين (٤٥٨) .
(٣) الصناعتين (٤٥٨) .
(٤) نفس المصدر (٤٦٠) .
(٥) نفس الموضع .
(٦) نفس المصدر (٤٦١) .

وصلت القراءة صار قوله تعالى. «إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون» كأنه تفسير لـ «قولهم» وهذا ممتنع!؟

وأما السكت فكما عند قوله تعالى حكاية عن المبعوثين من القبور يوم القيامة ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢] حيث ينبغي السكت عند قوله «مرقدنا» ولو وصلت القراءة لصار «هذا» كأنه مشار به إلى مرقدنا وليس النظم كذلك.

على هذا النهج يمكن فهم المراد بالفصل والوصل قبل الامام عبد القاهر أما هو فقد أراد منه معنى جديدا بكرا لم يهتد إليه السابقون قط.

محاولات شبيهة.. وليست منه

ومن الآنصاف أن نقول: إنه قد جرت محاولات قبل الإمام عبد القاهر شبيهة بمبحث الفصل والوصل عنده، وليس منه، لأنها وقعت بين مفردات والفصل والوصل اصطلاح خاص بالجمل.

فقد ذكر صاحب الأغانى(١) وصاحب الموشح(٢) أن الكميت والنصيب، ومعهما ذو الرمة، اجتمعوا فاستنشد النصيب الكميت فأنشده الكميت قصيدته التى مطلعها:

هل أنت عن طلب الإيفـــاع منقلب

أم كيف يحسن من ذى الشيبة اللعب

فلما وصل إلى قوله:

أم هل ظعـــائن بالعليـــاء نافـــعـــة

وان تكامل فيـــهـــا الأنس والشنب(٣)

---

(١) الأغانى (جـ ١ ص ٣٤٨).

(٢) الموشح (٣٠٣ - ٣٠٤).

(٣) الشنب: ماء ورقة فى الأسنان.

عقد النصيب بيده واحدا، فقال له الكميت: ما هذا؟ قال: أحصى خطاك، تباعدت فى قولك «الأنس والشنب».

ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أنيابها شنب(١)

ورواية الأغانى فى تعليق النصيب: تباعدت ما الأنس من الشنب أى أنهما متجافيان فلا يسوغ الجمع بينهما ويرى الآمدى هذا الرأى ولكنه يذكر بيت الكميت برواية أخرى. قال:

«وعيب أيضاً الكميت بأن جمع بين كلمتين لاتشبه إحداهما الأخرى وذلك قوله:

وقد راينا بها خودا منعمة رواد تكامل فيها الدل والشنب

قالوا: الدل لايكون مع الشنب، إنما يكون مع الفنج أو نحوه والشنب إنما يكون مع اللعس أو ما يجرى مجراه من أوصاف الثغر والفم(٢).

ومنه ما أخذه الآمدى على البحترى فى قوله:

تشق عليه الريح كل عشية جيوب العمام بين بكر وأيم

فقد قال معقباً عليه:

«وهذا أيضاً غلط، لأنه ظن أن الأيم هى الثيب، وقد غلط فى مثله أبو تمام، وذكرته فى اغاليطه(٣)، فظن البحترى أن الأيم هى الثيب، فجعلها فى البيت ضد البكر، والأيم هى التى لازوج لها بكرا كانت أو ثيباً(٤)».

ومنه ما ذكره الإمام عبد القاهر نفسه حول قول أبى تمام إذ يقول «ومن هنا عابوا قول أبى تمام:

لا والذى هو عالم أن النوى صبر، وأن أبا الحسين كريم

---

(١) الموازنة (جـ١ ص ٥٠) وما بعدها.

(٢) الموازنة (جـ ص ٣٧٦) وسر الفصاحة (٦٨).

(٣) يقصد حلت محل البكر من معطى وقد زفت من المعطى زفاف الأيم.

(٤) الموازنة نفس الموضع.

وذلك لأنه لامناسبة بين كرم أبى الحسين ومرارة النوى ولا تعلق لأحدهما بالآخر(١).

(تجاوز الى الجمل)

فيما تقدم كانت الملاحظات منصبة على وصل المفردات التى لاعلاقة ولاتناسب بينها.

وقد وقفت على كلام القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى تجاوز المفردات إلى الجمل، ومع هذا فلايبدو أنه كان الشرارة التى ألهمت عبد القاهر فكرته التى اهتدى إليها فى العلاقات بين الجمل وما يترتب عليها من فصل ووصل، للبون الشاسع بين ما ذكره الرجلان.

ومن الخير أن نقتبس نبذا مما قاله القاضى الجرجانى فى هذا الصدد إعطاء لكل ذى حق حقه.

قبل القاضى الجرجانى كان الآمدى قد تعرض لنقد قول البحترى المتقدم «بين بكر وأيم» وعد ذلك غلطاً من الشاعر حيث ظن أن الأيم هى الثيب، وليس الأمر كذلك وقال الآمدى:

وسها أيضاً فيه كبار الفقهاء «يقصد الإمام الشافعى رضى الله عنه حيث رأى مثل رأى البحترى فى قوله ﷺ. «الأيم أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأذن فى نفسها».

فجاء الجرجانى ورأى فى المسألة ما لم ير الآمدى وغيره، حيث نقل فى الأيم عن أصحاب اللغة قولين: أحدهما: أن المرأة قد تكون أيما إذا لم يكن لها زوج وإن لم تكن نكحت قط، الثانى: أنها لا تكون أيما إلا وقد نكحت ثم خلت بموت أو طلاق، بكرا كانت أو غير بكر، بنى عليها الزوج أو لم يبن.

ثم حكى عن العراقيين أنهم فسروا الأيم فى الحديث المذكور على ظاهر اللغة فجعلوا الأيم عاما فى الثيب والبكر، وتأولوا البكر ثم قال:

«وأبى أصحابنا ذلك. فذهب الشافعى إلى أن المراد بالأيم الثيب(٢)».

---

(١) دلائل الاعجاز (١٧٣).

(٢) الوساطة (٧٦ – ٨٠).

(دفاع عن الامام الشافعى)

وهنا أحس القاضى الجرجانى بضرورة الدفاع عن الشافعى رضى الله عنه، وتبرئته مما اتهمه به الآمدى فقال:

وليس يحفظ عنه، ولايوجد فى شىء من كتبه أن الأيم والثيب فى اللغة عبارتان عن معنى واحد، فيجد العائب طريقاً إلى عيبه، ولكن لطف فى الفكر فتوصل به إلى استخراج ما غمض على غيره، وذلك أنه رأى الخبر تضمن ذكر الأيم والبكر، ووجد البكر معطوفا على الأيم، وكان ظاهر الخطاب، وحقيقة اللغة يقتضى تغاير المعطوف والمعطوف عليه، ومن الظاهر عند أهل اللسان أن الشىء لايعطف على نفسه. هذا هو الأصل المطرد، فإن وجد فى الكلام ما يخرج عنه وأصيب ما يخالف هذه القضية، فزائل عن الظاهر تابع لدليله كما يوجد عموم يخص، وأمر يحمل على الندب، وخبر يراد به الأمر، فلا يترك له موضوعات الأصول، ولا يعترض به على حقائق اللغة ويصل الجرجانى إلى قمة الدفاع عن الشافعى حين يقرر:

«وعادة الاستعمال فى اللغات مقدمة على حقائقها، وهى أولى بالظاهر من أصولها.

ويقترب مما نحن بصدده فيقول:

«وكما لا يعطف بالشىء على نفسه، فكذلك لايعطف على جملة هو بعضها لأنه يكون معطوفاً به على نفسه، وعلى شىء آخر معه(١)».

ثم ينتقل إلى الحديث عن الجمل فيقول:

ولو قال قائل من أهل اللغة، موثوق بسداده: جاءنى عمرو وأكرمنى أبوزيد لوجب أن يكون أحدهما غير الآخر فى مقتضى الظاهر. وكذلك لو قال: وجدت

---

(١) الوساطة (٨١).

عبد الله عاقلا، وأبا محمد فاضلا، لكان المعقول منهما تغايرهما، وإن أمكن أن يكون المسمى هو المكنى[1]».

أجل: هذا كلام فى عطف الجمل أورده القاضى الجرجانى، ملاحظا أن العطف بالواو يقتضى المغايرة، كما لاحظ من قبل امتناع عطف الشىء على نفسه. ومن غير الظاهر عدم التغاير إذا دلت على ذلك قرينة.

فإذا ضممنا كلامه فى الجمل إلى كلامهم فى المفردات، وهو كل ما عثرنا عليه فى كتابات ما قبل الإمام عبد القاهر، فهل هذا - مع ندرته - يصلح أن يكون أساسا لما فصله الإمام عبد القاهر فى العلاقات بين الجمل أو الفصل والوصل كما استقر عليه الاصطلاح؟

أنا لا أستبعد أن تكون هذه «البوادر» بمثابة ضوء رقيق جداً لفتت نظر الامام عبد القاهر إلى التفسير، أما أن تكون أساسا بنى هو عليه أصول الفكرة وفروعها فذلك ما لايمكن الاقتناع به ولاقبوله، لأن فكرة الفصل والوصل أو العلاقات بين الجمل ولدت على يد الامام عبد القاهر وترعرعت حتى بلغت الكمال. وإذا كان السابقون على الامام قد غفلوا عن هذا المبحث، فإن الذين جاؤا من بعده داروا فى فلكه ولم يكن لهم من فضل إلا أن يرددوا ما قاله مع إضافات لهم اوحت بها كتابات الامام نفسه، وهذا ما سنعرض له الآن.

منهج الامام فى اكتشاف العلاقات بين الجمل

تبين مما تقدم إن الامام عبد القاهر لم يبدأ من فراغ فى كثير من المباحث البلاغية، وإن كان له فى كل قديم تجديد. ولكنه فى بعض المباحث قد بدأ من فراغ، ومن هذه المباحث (مبحث الفصل والوصل). فلم يكن بين يديه مما تركه السابقون شىء يذكر فى هذا المبحث، فكان جديدا عنده. فى أصل الفكرة، وفى المنهج الذى اتبعه فى تقعيدها، وفى اقتداء اللاحقين به فيها.

---

(١) أى أن (أبو زيد) هو عمرو فى المثال الأول وأبا محمد هو عبدالله فى المثال الثانى.

وقد بدأ الإمام ـ رحمه الله ـ الفكرة بجملة بين فيها خطر الموضوع ودقته فقال:

«اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها، والمجىء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، ومما لايأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص، والأقوام طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنا من المعرفة، فى ذوق الكلام هم بها أفراد، وقد بلغ من قوة الأمر فى ذلك أنهم جعلوه حدا للبلاغة فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل، ذلك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لايكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة(١).

والإمام عبد القاهر قد أكسب «الفصل والوصل» الذى كان يتردد قبلا معنى جديدا هنا، لم يكن فى حسبان السابقين، بل هو قد نقله إلى «فن» دقيق محدد المعالم والقسمات، بعد أن كان مجرد قول يتردد خال من كل مضمون. أو له مضمون ضحل، مثلما ورد فى الصناعتين لأبى هلال كما تقدم آنفا.

ومنذ البداية أخذ اللاحقون يقتدون بالامام عبد القاهر حتى فى ترديد هذه المقدمة تارة بالمعنى، وأخرى باللفظ والمعنى معاً، مع تغيير يسير:

فالسكاكى نقل المعنى فقال عن جهات الفصل والوصل:

إنها لمحك البلاغة، ومتقد البصيرة، ومضمار النظار، ومتفاضل الأنظار ومعيار قدر الفهم، ومسبار وغور الخاطر، ومنجم صوابه وخطئه، ومعجم جلائه وصدئه، وهى التى إذا طبقت فى المفصل شهدوا لك من البلاغة بالقدح المعملى وإن لك فى إبداع وشيها اليد الطولى(٢).

ويقول الخطيب مبيناً منزلة الفصل والوصل من البلاغة:

---

(١) دلائل الاعجاز (١٧٠ ـ ١٧١).

(٢) مفتاح العلوم (١٠٨).

« فن منها عظيم الخطر، صعب المسك، دقيق المأخذ. لايعرفه على وجهه، ولايحيط علما بكنهه إلا من أوتى فى فهم كلام العرب طبعاً سليما، ورزق فى إدراك أسراره ذوقا صحيحاً. ولهذا قصر بعض العلماء البلاغة على معرفة الفصل من الوصل، وما قصرها عليه لأن الأمر كذلك، إنما حاول بذلك التنبيه على مزيد غموضه وأن أحدا لايكمل فيه إلاكمل فى سائر فنونها[١] ».

وينهج العلوى نفس النهج فيقول فى مقدمة المبحث:

« وهو دقيق المجرى، لطيف المغزى، جليل المقدار، كثير الفوائد، غزير الأسرار، ولقد سئل بعض البلغاء عن ماهية البلاغة فحدها بمعرفة الفصل والوصل[٢] ». وسلك نفس المسلك بهاء الدين السبكى فى شرحه على التلخيص ونقل نفس عبارة « الفصل والوصل » كما فعل الخطيب وصاحب الطراز ثم قال بعدها:

« كذا نقله الخفاجى فى سر الفصاحة، والبيانيون. قلت: والذى قال ذلك هو أبو على الفارسى نقله - أى الخفاجى - عن العسكرى فى الصناعتين، وقصد بذلك المبالغة، وإن من كمل فيه لابد أن يكون كمل فى غيره[٣] ».

وهذا الذى ذكره السبكى خطأ، فليس أبو على الفارسى هو أول من حد البلاغة بأنها معرفة الفصل من الوصل، فقد ورد هذا القول فى كتب الجاحظ كما تقدم، ولو كان هذا القول لم يعرف إلا عن أبى على الفارسى لما ورد ذكره فى كتب الجاحظ الذى توفى عام ٢٥٥ هـ. وأبو على الفارسى كما جاء عن ياقوت توفى عام ٣٧٧ هـ عن نيف وتسعين سنة[٤]، فيكون مولده عام ٢٨٤ هـ - إذا فسرنا النيف بـ: من واحد إلى ثلاثة أى بعد وفاة الجاحظ بنحو ٢٩ عاما..؟!

(١) الايضاح (٨٦).
(٢) الطراز (جـ ٢ ص ٣٢).
(٣) عروس الأفراح: شروح التلخيص (جـ ٣ ص ٢).
(٤) معجم الأدباء (جـ ٧ ص ٢٣٣) المجلد الرابع.

ويبدو أن الذى أوقع صاحب عروس الأفراح فى هذا الخطأ أن العبارة فى كتب الأقدمين مسبوقة بقولهم: «وقيل للفارسى ما البلاغة؟ فظن أن الفارسى المسئول هو أبو على، وليس الأمر كما ذكر؟

أسس منهج البحث عند الامام عبد القاهر

ثم انتقل الإمام عبد القاهر - بعد هذه المقدمة - يضع أسس المنهج على النحو الآتى:

أولا: قاس العطف فى الجمل على العطف فى المفردات.

ثانياً: فرق بين نوعين من الحروف العاطفة: الأول هو خصوص الواو والثانى حروف العطف غير الواو: الفاء، ثم، أو. وهكذا.

ثالثاً: فرق بين نوعين من الجمل المعطوف عليها: جمل لها محل من الإعراب، وجمل لا محل لها من الإعراب.

رابعاً: فرق بين نوعين من العلاقات بين الجمل: نوع يقتضى ترك العطف (الفصل) ونوع يوجبه (الوصل).

وعلى هذا المنهج العلمى المنظم مضى الإمام عبد القاهر - بذكائه الحاد، وعلمه الغزير، وذوقه السليم - يعرض، ويحلل، ثم يستنتج ويُقَعِّدُ لفن من أرقى فنون البلاغة وأخفاها أسرارا وعللا، وهاك شروحا موجزة وافية لأسس المنهج التى أدار عليها البحث.

* * *

قياس الجمل على المفردات

قال رحمه الله:

« وأعلم أن سبيلنا أن ننظر إلى فائدة العطف فى المفرد، ثم نعود إلى الجملة فننظر فيها ونتعرف حالها. ومعلوم أن فائدة العطف فى المفرد أن يشرك الثانى (المعطوف) فى إعراب الأول (المعطوف عليه) وأنه إذا أشركه فى إعرابه فقد أشركه فى حكم ذلك الاعراب، نحو أن المعطوف على المرفوع بأنه فاعل (فاعل[1]) مثله، والمعطوف على المنصوب بأنه مفعول به أو فيه أو له شريك له فى ذلك.

وإذا كان هذا أصله فى المفرد، فإن الجمل المعطوف بعضها على بعض على ضربين: أحدهما أن يكون للمعطوف عليها موضع من الاعراب وإذا كانت كذلك كان حكمها حكم المفرد، إذ لايكون للجملة موضع من الاعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد كان عطف الثانية عليها جاريا مجرى عطف المفرد، وكان وجه الحاجة إلى الواو ظاهرا، والاشراك فى الحكم موجودا[2] » ويمثل لهذا بقوله: مررت برجل خَلْقه حسن وخُلقه قبيح وقال أن الجملة الثانية فى موضع جر لأنها صفة النكرة.

والقول بأن الجملة لايكون لها محل من الإعراب إلا إذا وقعت موقع المفرد، لم يشع قبل كتابات عبد القاهر، وشاع بعده فى كتب اللاحقين.

كالخطيب[3]، وشراح تلخيصه[4]، والعلوى[5] وكل من تناول الكلام فى هذا المبحث استنار بما كتبه الامام رضى الله عنه.

---

(١) ما بين العلامتين (فاعل) زيادة ليست فى الأصل، ولكن السياق يقتضيها.
(٢) دلائل الاعجاز (١٧١).
(٣) الايضاح (٨٦).
(٤) شروح التلخيص (جـ٣ ص ٥-٧).
(٥) الطراز (٣٣).

وقد استدرك على هذا الاطلاق الدسوقى فى حاشيته على شرح السعد فقال. «إنما شبه المصنف عطف الجملة التى لها محل من الاعراب بالمفرد، لأن الأصل والغالب فى الجملة التى لها محل من الاعراب أن تكون واقعة فى موضع المفرد. وإنما قلنا الأصل ذلك، لأن الجملة المخبر بها عن ضمير الشأن لها محل من الاعراب وليست فى محل مفرد(١)».

وهذه لفته جميلة من الدسوقى حيث جعل الحكم أغلبياً لا كليا لما استقر عند النحاة من أن خبر ضمير الشأن ـ ومثله القصه ـ لايكون إلا جملة وبها ورد التنزيل كقوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمِي الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿ **عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ** ﴾[المزمل: ٢٠].

فجعله.. لاتعمى.. خبر الضمير الهاء وجملة سيكون خبر ضمير الشأن المحذوف إذ التقدير أنه سيكون فان محففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن المحذوف.

ونضيف إلى ما ذكره الدسوقى موضعا آخر، وهو الجملة الواقعة خبر لكاد أو إحدى إخواتها، فقد أجمع النحاة على أن خبر هذه الأفعال الناقصة الاعراب محلها النصب وليست واقعة موقع المفرد، وإلا لما تحقق شرط النحاة فيها من كونها جملة فعلها مضارع. وعلى هذا جاء التنزيل كقوله تعالى: ﴿ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ** ﴾ [النور: ٣٥] وشعر العرب الخلص ونثرهم كقول الكلحبة اليربوعى التميمى:

كَرَبَ القلبُ من جواه يذوب حين قال الوشاة هند غضوب

ولا عبرة بما أشار إليه ابن مالك فى ألفيته من قوله:

لكن ندر.. غير مضارع لهذين خبر.

ولا لما استشهد به عليه ابن هشام من قول الشاعر:

أكثرت في العدل ملحا دائما لا تكثرن إني عسيت صائماً

(١) حاشية الدسوقى على شرح السعد ـ شروح التلخيص (جـ٣ ص ٧).

حيث جاء وصائما خبرا عن عسيت.

وقول الشاعر:

فأبت إلى فهم وما كدت آئبا وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

لأن البيت الأول مجهول القائل، والثانى متنازع فى روايته(١).

وحتى لو صح هذا فإنه مخصوص بالأداتين (عسى - كاد) ولا يعم كل النواسخ فى هذا الباب، ولهذا قال ابن مالك: لهذين خبر وهما خصوص الفعلين كاد، وعسى.

التفرقة بين نوعين من الحروف العاطفة

فرَّق عبد القاهر بين نوعين من حروف العطف - كما تقدم - النوع الأول الواو والثانى ما عدا الواو مثل الفاء وثم وأو، وصارت هذه التفرقة سمة من سمات منهجه الذى شاع فى كتابات المتأخرين: قال رحمه الله:

« واعلم إنما يعرض الأشكال فى الواو دون غيرها من حروف العطف، ذلك لأن تلك تفيد مع الاشراك معانى مثل أن الفاء توجب الترتيب من غير تراخ، وثم توجبه مع تراخ، وأو تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه، فإذا عطفت بواحد منها الجملة على الجملة ظهرت الفائدة(٢)..»

وليس للواو معنى سوى الاشراك فى الحكم الذى يقتضيه الإعراب، الذى اتبعت فيه الأول. فإذا قلت: جاءنى زيد وعمرو لم تفد بالواو شيئا أكثر من إشراك عمرو فى المجىء الذى أثبته لزيد، والجمع بينه وبينه، ولايتصور إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراك فيه(٣).

ويترتب على هذه التفرقة أن أمر العطف بغير الواو سواء كان بين المفردات أو الجمل يسير، لأن لغير الواو معانى خاصة تؤديها فى التركيب فوق مجرد الاشراك فى الحكم الإعرابى.

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل (جـ ١ ص ٣٢٤) ت الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد.
(٢) دلائل الاعجاز (١٧٢).
(٣) نفس الموضع.

ولما كانت الواو ليس لها معنى سوى مجرد الاشراك فى الحكم الإعرابى فإنه حين يخلو المقام من ذلك الحكم - وبخاصة بين الجمل - فإن شأن العطف بها يغمض ويدق.

وهذا يقضى بنا إلى الأساس الثالث من أسس المنهج إذ به تتجلى حقيقة الباب كله.

التفرقة بين نوعين من الجمل

النوعان اللذان فرَّق بينهما الإمام عبد القاهر من الجمل هما:

الأول: جمل لها محل من الإعراب، وهذا النوع متى أريد تشريك جملة أخرى فى حكم إعرابى لجملة منها وجب عطفها عليها بالواو، وقد مثل له أنفا بقوله: مررت برجلٍ خَلقه حسن، وَخُلقُه قبيح، ولايتطلب شيء آخر يصحح العطف غير إرادة التشريك، فيكتفى به مناسبة مناسبة بينها، ومفهوم هذا أنه إن لم يرد التشريك امتنع العطف، وهو مفهوم صحيح وإن كان لم يمثل له.

الثانى: الجمل التى لا محل لها من الإعراب، وأمر العطف فيها خفى غامض، وهو لب المشكلة، لأن العطف لابد فيه من مناسبة خاصة، وخلوها من الإعراب مؤذن بامتناع العطف لفقد المناسبة، وفى ذلك يقول الإمام: «والذى يشكل أمره هو الضرب الثانى، وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى كقولك: **زيد قائم** وعمرو قاعد لاسبيل لنا إلى أن ندعى أن الواو أشركت الثانية فى إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجوه[1]» ويخلص من هذا إلى أن العطف هنا ليس سببه التشريك فى الاعراب، فهو هنا معدوم، وأن العطف وتركه لايستويان لو قيل: زيد قائم عمرو قاعد»؟!

ويفضى به هذا كله الى تقرير الجامع «بين الجملتين الخاليتين من الاعراب، ويتحقق الجامع باعتبارين **أحدهما** فى المسندين إليهما. وفيه يقول:

فإنا نرى امراً آخر نحصل معه على معنى الجمع، وذلك أنا لانقول: زيد

---

(١) نفس المصدر (١٧١).

وعمرو قاعد، حتى يكون عمر بسبب من زيد، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين بحيث إذا عَرَفَ السامع حال الأول عناه أن يعرف الثانى[1]».

والثانى فى المسندين، وفيه يقول:

«كما يجب أن يكون المُحَدَّثُ عنه (المسند إليه) فى إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه فى الأخرى، كذلك ينبغى أن يكون الخبر عن الثانى مما يجرى مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر الأول. فلو قلت: زيد طويل القامة وعمرو شاعر كان خُلْفاً، لأنه لا مشاكلة ولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر، وإنما الواجب أن يقال: زيد كاتب وعمرو شاعر وزيد طويل القامة وعمرو قصير[2]...»

وبهذا حدد الإمام عبد القاهر المناسبة الخاصة أو «الجهة الجامعة» التى ينبغى أن تتحقق بين الجملتين العارتين من الإعراب حتى يمكن عطف ثانيتهما على أولاهما، وفكرة «الجهة الجامعة» هنا مناظرة للحكم الإعرابى فى الجمل التى لها محل منه فى أن كلا منهما حتم فى تصحيح العطف.

التفرقة بين نوعين من العلاقات بين الجمل

هذه هى الخطوة الأخيرة فى منهج الإمام عبد القاهر فى مبحث الفصل والوصل، فصل فيها القول فى نوعين من العلاقات:

نوع يقتضى ترك العطف (الفصْل) وله عنده ضابطان:

(أ) غاية الاتصال.

(ب) غاية الانفصال.

ونوع يقتضى العطف (الوصل) وَحدَّهُ بأنه **واسطة بين الأمرين**.

وبهذا وصل الإمام عبد القاهر إلى قمة هذا المبحث، وقد مثل لهذه الصور الثلاث، وكان جل تمثيله فى القرآن الحكيم، وجال بفكره الصائب فى كل نص

---

(١) نفس المصدر (١٧٢-١٧٣).

(٢) نفس المصدر (١٧٣).

استشهد به، وغاص وراء أسراره ومعانيه ووضح حقائق العلاقات بين ما هو متصل، وأسباب الانبتات فى ما هو منفصل، وفى هذا يقول:

الجمل على ثلاثة اضرب: جملة حالها مع التى قبلها حال الصفة مع، الموصوف والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون فيها العطف البتة؛ لشبه العطف فيها - لو عطفت - بعطف الشيء على نفسه وجملة حالها مع التى قبلها حال الاسم يكون غير الذى يكون قبله، إلا أنه يشاركه فى حكم ويدخل معه فى معنى مثل أن يكون كلا الإسمين فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه فيكون حقها العطف. وجملة ليست فى شيء من الحالين، بل سبيلها مع التى قبلها سبيل الاسم مع الاسم لايكون معه فى شيء، فلا يكون إياه ولا مشاركا له.. وحق هذا ترك العطف البتة؛ فترك العطف يكون للاتصال إلى الغاية، أو الانفصال إلى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين(١)..»

وهذه الصور هى التى أطلق عليها المتأخرون بدءا من السكاكى ومِنْ بعده الخطيب القزوينى(٢).

كمال الاتصال: وهو من دواعى الفصل.

كمال الانقطاع: وهو من دواعى الفصل كذلك.

المتوسط بين الكمالين: وهو داعى الوصل الوحيد عند الإمام عبد القاهر.

صور الفصل والوصل عند المتأخرين وصلتها بمباحث الامام

مجموع صور الفصل والوصل عند المتأخرين ست(٣): أربع منها للفصل وهى: **كمال الاتصال، كمال الانقطاع، شبه كمال الاتصال، شبه كمال الانقطاع** واثنتان للوصل وهما:

التوسط بين الكمالين، كمال الانقطاع مع إيهام الفصل غير المطلوب:

فهل معنى ذلك أن المتأخرين قد اهتدوا إلى ثلاث صور من العلاقات لم يكن الإمام عبد القاهر قد اهتدى إليها؟

---

(١) دلائل الاعجاز (١٨٨) وما بعدها.

(٢) انظر مفتاح العلوم للسكاكى (١٠٩) والايضاح للخطيب (٨٧، ٩٣).

(٣) هذا التقسيم خاص بالجمل التى لا محل لها من الإعراب.

إن الجديد فى هذه الصور الست هو:

شبه كمال الاتصال، وشبه كمال الانقطاع، كمال الانقطاع مع الايهام

وبالرجوع إلى ما كتبه الإمام عبد القاهر نجد صورة من هذه الصور تحدث عنها الإمام بصراحة وإن لم يسمها كما سماها المتأخرون، بل وقد أكثر من التمثيل لها حتى أصبحت شواهدها من القرآن والشعر أكثر الشواهد فى الموضوع كله(١)، وهى صورة الجملة المنزلة منزلة الجواب عن سؤال محذوف تضمنته الجملة الأولى:

ظاهر كلام الشيخ عبد القاهر أن هذه الصورة من أفراد «كمال الاتصال» وصريح كلام المتأخرين أنها «شبه كمال الاتصال» يقول الامام عبد القاهر فى فصل قوله تعالى: «الله يستهزىء بهم» عما قبله:

وها هنا أمر سوى ما تقدم بوجب الاستئناف وترك العطف، وهو أن الحكاية عنهم - المنافقين - بأنهم قالوا كيت وكيت، تحرك السامعين لأن يعلموا مصير أمرهم وما يصنع بهم. أتنزل بهم النقمة عاجلا أم لاتنزل.. وإذا كان كذلك كان هذا الكلام الذى هو قوله تعالى: «الله يستهزىء بهم» فى معنى ما صدر جوابا عن هذا المقدر وقوعه فى أنفس السامعين. كان حقه أن تؤتى به مبتدأ غير معطوف(٢)».

وعلى هذا النحو يمضى فى تبيين هذه الصورة مكثرا من التمثيل لها من أقوال الشعراء. وهى نفس الشواهد التى ذكرها الخطيب مِنْ بعده وشاعت فى كتابات اللاحقين إلى اليوم.

القول المفصول فى القرآن استئناف كله

وتقود هذه الفكرة الامام عبد القاهر إلى وضع قاعدة عامة رأى أنها تطبق على كل ما جاء فى القرآن الكريم من لفظ «قال» مقطوعا عما قبله وهذا كلامه:

---

(١) الدلائل (١٨١-١٨٧).

(٢) الدلائل (١٨١-١٨٢).

« واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ قال مفصولا غير معطوف هذا هو التقدير فيه[1] . . »

وساق على هذا جملة من الشواهد القرآنية قد سلمت له : إلا شاهدا واحدا فإننا ننازعه فيه، وهو قوله تعالى حكاية عن ابراهيم للمرسلين إليه وقد حَسِبَهم ضيوفاً .

قال : « فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الحجر : ٥٨] حيث جعل قول المرسلين جوابا عن سؤال مقدر . وقدم له بقوله، ومما هو فى غاية الوضوح . . ثم أردف .

وذلك أنه لايخفى على عاقل أنه جاء على معنى الجواب، وعلى أن ينزل السامعون كأنهم قالوا : فما قال الملائكة؟ فقيل : قالوا : « إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين[2] » .

ولسنا مع الإمام فيما ذهب إليه هنا، لأن هذه الجملة واقعة جوابا للسؤال المذكور فى الآية قبلها : قال « فما خطبكم أيها المرسلون » والمجاب بها إبراهيم نفسه عليه السلام لا السامعون المقدر صدور سؤال عنهم، وحتى لو سلمنا بهذا فإن سؤال إبراهيم المذكور ـ وكذلك كل ما كان مثله ـ أولى بالرعاية من السؤال المقدر؟!

والخلاصة أن هذه الصورة ـ شبه كمال الاتصال ـ كانت من أبرز الحالات التى أولاها الإمام عبد القاهر عنايته، فليست هى بجديدة محسوبة لمن جاء بعده، وليست لهم فيها إلا التسمية فحسب، أما الفكرة نفسها فهى من مباحث الإمام بلا أدنى نزاع .

(شبه كمال الانقطاع)

أما صورة شبه كمال الانقطاع، فهى وإن لم ينص عليها الامام، ولم يمثل

---

(١) نفس المصدر (١٨٥) .

(٢) الدلائل (١٨٦ ـ ١٨٧) .

لها صراحة فإن كتاباته هي التي أوحت للمتأخرين بها فقد كتب الامام عن نظائرها وأشباهها، وذلك حين منع أن يعطف قوله تعالى:

«الله يستهزىء بهم على جملة: قالوا من قول المنافقين قبلها: «قالوا: إنا معكم».

وبين سبب القطع بأن جملة قالوا جواب لقوله: وإذا خلوا إلى شياطينهم فهي مقيدة بالظرف، والعطف عليها يقيد المعطوف «الله يستهزىء بهم» بما قيد به المعطوف عليه، فيكون استهزاء الله بهم وقت خلوهم إلى شياطينهم، وهذا مدفوع، لأن استهزاء الله بهم حاصل لهم خلوا أم لم يخلوا.

وقد بين في صدر هذا الفرع بأن جملة «الله يستهزىء بهم» كان من حقها أن تعطف على ما قبلها، ولكنها قطعت لهذا الاعتبار، كما قطعت عن قولهم «إنا معكم» وعن قولهم «إنما نحن مستهزئون» مع أن من حقها أن تعطف، وإنما قطعت لئلا تصبح حكاية عنهم ومن مقولهم مع أنها من مقول الله.

وعلى هذا المنوال منع عطف قوله تعالى: «ألا إنهم هم المفسدون» على نظائر ما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]

وكذلك منع عطف قوله تعالى: ألا إنهم هم السفهاء» على ما قبله من قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٢] لأن عطف كل منهما يؤدي إلى خلاف المقصود من التقييد بالظرف أو كونه من مقول القائلين.

على أن في منع عطف قوله تعالى «ألا إنهم هم السفهاء» مانعا آخر قد صرح الإمام به غير ما تقدم وهو: أن أنؤمن استفهام (يعني إنشاء) وألا إنهم هم السفهاء خبر، ولايعطف الخبر على الاستفهام[1] هذا ما قاله رحمه الله، ثم جاء

(١) دلائل الاعجاز (١٧٩ - ١٨١).

المتأخرون واستثمروه فى تقرير صورة شبه كمال الانقطاع التى مثلوا لها بقول الشاعر:

وتظن سلمى أننى أبغى بهـا بدلا أراها فى الضـلال تهـيم

وحللوه بمثل ما حلل به الإمام موانع الوصل فى المواضع الثلاثة المتقدمة فقالوا: لم يعطف أراها على تظن لئلا يتوهم السامع أنه معطوف على أبغى لقربه منه، مع أنه ليس بمراد(١) أى لئلا يصبح أراها من مظنونات سلمى وهو من كلام الشاعر المتهم عند سلمى بأنه يبحث عن خليلة سواها، وهو يتهمها بالضلال فى ظنها الكاذب.

فكل من هذه المواضع (الأربعة) الأصل فيها أن تعطف بعضها على بعض لولا هذا العارض الذى عرض. وقد عد الإمام عبد القاهر القطع فى هذه المواضع أصلا من أصول هذا المبحث قال: ومما هو أصل فى هذا الباب أنك ترى الجملة وحالها مع التى قبلها حال ما يعطف ويقرن إلى ما قبله، ثم تراها قد وجب فيها ترك العطف لأمر عرض فيها صارت به أجنبية مما قبلها(٢) ومن هذا يتبين فى وضوح أن ما سمى عند المتأخرين بـ شبه كمال الانقطاع أمر لم يكن جديدا على مباحث الامام، ولكنه قد اهتدى إليه ومثل له بثلاثة شواهد، بينما لم يمثل له من بعده إلا بمثال واحد، وليس لهم من فضل إلا التسمية فحسب وعلى هذا فكل من:

كمال الاتصال، وشبه كماله، وكمال الانقطاع وشبه كماله، والتوسع بين الكمالين، هذه العلاقات الخمس كلها وثيقة العرى بعمل الإمام عبد القاهر رحمه الله؛ وليس فيها جديد خالص أورده المتأخرون -إلا التسمية- لم يهتد هو إليه. ولم يبق من الصور الست إلا كمال الانقطاع مع إيهام الفصل خلاف المقصود. وهذه الصورة ليس لها عندهم إلا مثال واحد مأثور أورده الجاحظ حيث قال: ومما يروى عن أبى بكر من أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له أتبيع الثوب؟

---

(١) الايضاح (٩٠) وشروح التلخيص (جـ٣ ص ٥٠).

(٢) دلائل الاعجاز (١٧٨).

فأجابه: لا عافاك الله. وتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يظن أن النفى مسلط على الدعاء. فقال له: لقد علمتم لو كنتم تعلمون قل: لا وعافاك الله[1] والخطيب أورد المثال هكذا كقول البلغاء: لا وأيدك الله[2].

وجاراه شراح التلخيص وأصحاب الحواشى[3] ومنهم من روى العبارة لا ويرحمك الله[4].

هذه الصورة - وحدها - لم ترد فى كتابات الإمام عبد القاهر وإنما هى من إضافات الخطيب.

والواقع أن هذه الصورة، والصورة التى قبلها - شبه كمال الانقطاع - ليستا علاقتين جديدتين بين الجمل خارجتين عما قرره الإمام رحمه الله.

فما اسموه - شبه كمال الانقطاع - إنما هو من صور التوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين تظن - أراها - فى الخبرية لفظاً ومعنى، ولما امتنع العطف فيهما للعارض الذى تقدم آثروا أن يطلقوا عليه كمال الانقطاع، وما هو منه.

وبهذا يمكن حصر العلاقات بين الجمل فى الصور الأربع الآتية ثلاث للفصل وهى:

١ - كمال الاتصال.

٢ - كمال الانقطاع ما لم يؤد الفصل إلى خلاف المقصود فيوصل.

٣ - شبه كمال الاتصال.

وواحدة للوصل وهى:

٤ - التوسط بين الكمالين ما لم يؤد الوصل إلى خلاف المقصود فيفصل.

وفى ظل هذا التقسيم تصبح الصورتان الآخريان حالتى استثناء من أصل عام، وتصبح العلاقات كلها مستقاة من مباحث الإمام رحمه الله.

---

(١) البيان والتبيين (جـ١ ص ٢٦١).

(٢) الايضاح (٩٣).

(٣) شروح التلخيص (جـ٣ ص ٦٨) وبهاء الدين السبكى بجعل الواو زائدة لا عاطفة.

(٤) الدسوقى فى حاشيته على السعد (جـ٣ ص ٦٩).

إضافات المتأخرين

وبعد التسليم بأن هذه الأصول إنما هى من عمل الإمام عبد القاهر فإننا نسلم بأن للمتأخرين - وبخاصة الخطيب - إضافات حسنة لها فى هذا المبحث قيمتها، كما كان للسكاكى من قبله بعض الاضافات الممتازة كتقسيمه الثلاثى للجامع: عقلى، وخيالى، ووهمى، والاستشهاد الموفق عليه، ومحسنات الوصل وللخطيب شرحه المستقصى لأحوال العلاقات: بم يكون كمال الانقطاع؟ وكمال الاتصال والسر البلاغى فى تأكيد المؤكد والإبدال من المبدل منه، والبيان بعد الابهام وبم يكون التوسط.

ثم جاء دور شراح التلخيص وأصحاب الحواشى وأخذ البحث اتجاهاً آخر نحو الإعراب والمماحكاة الجدلية، ومع مالهم من دراسات طيبة، فإنهم جنحوا كثيراً عن الجادة حتى لقد أوصل بعضهم صور العلاقات بين الجمل - فصلا ووصلا - إلى ستمائة ألف، وستة عشر ألفا، وتسعمائة وعشرين قسما[1] بعد أن كانت أربع صور فى مباحث الإمام عبد القاهر..؟!

الامام عبد القاهر: متبع مجددا ومبتدع غير مسبوق

أجل. أن هذا العنوان هو خلاصة البحث كله، فالامام عبد القاهر لم يبدأ من فراغ، ولكنه لم يذب شخصيته العلمية فى بوتقة من سبقوه. فما من موضوع تناوله بالدراسة، وكان قد بحث من قبله، إلا وأضاف إليه جديدا لم يعهد لغيره، فجمع ما تفرق من مباحث البلاغة فى عرض مشرق، وصياغة أنيقة، وأسلوب صقيل، حتى عده أحد الباحثين المحدثين واحداً من ثلاثة بدأ على أيديهم فن ثم اكتمل.

أحدهم الخليل بن أحمد الفراهيدى، بدأ العروض على يديه واكتمل وثانيهم سيبويه؛ بدأ النحو على يديه واكتمل.

والثالث الإمام عبد القاهر، بدأت البلاغة على يديه واكتملت (٢).

---

(١) شروح التلخيص (جـ٣ ص ٦ - ٧).

(٢) أحمد مصطفى المراغى (تاريخ علم البلاغة والتعريف برجالها). ص ٢١.

هذا.. وقد سلم للإمام عبد القاهر الكثير من المباحث البلاغية - بعد مواضع الاشتراك - منها مبحث الفصل والوصل على النحو الذى قدمناه فهو أبو عذرته، وواضع نبتته، ومتعهد عوده، ومفتق اكمامه، ومجتنى ثماره.

أعطى مَنْ بعده أضعاف أضعاف ما أخذ هو ممن قبله؛ جامعا بين الاستفادة والافادة خير جمع وأبقاه.

الحكمة.. والمثل.. والتمثيل

نظرات فى اصولها وخصائصها الفنية(١)

تتفاوت قيم الكلام كما تتفاوت قيم «النقود» فهى قد تتساوى فى «العدد» ولاتتساوى فى «القيمة» فقطعة واحدة منها تساوى فى القيمة عشرات القطع، بل مئاتها، وإن أطلق على كل منهما رقم واحد.

أو تتفاوت قيمه، أى الكلام، تفاوت قطعتين من «المعادن» وزنهما واحد، فليس مثقال من «الفضة» يعدل مثقالا من «الذهب» ولامثقال من «النحاس» يعدل واحدا منهما، وان اتحد الوزن.

أو كما تتفاوت قيم «الحجوم» المتماثلة فى المقدار، إذا اختلفت طبيعة المادة المكونة، لها، لأن الحجوم لاينظر فيها عند «الموازنة» والتقويم إلى ما يشغله كل حجم من الفراغ، وإنما ينظر فيها إلى أعيانها وأجناسها.

بم يتفاضل الكلام

هذه مثل ثلاثة لتفاوت قيم الكلام. فهو لاينظر فيه إلى طوله وقصره، وكونه كلاما وكفى، وإنما ينظر فيه إلى مضامينه ومعانيه، وتراكيبه، ومبانيه، وبقدر ما يحمله الكلام من تلك الخصائص تكون قيمه، وبها يقدم كلام على كلام. وفى الحكم والأمثال والتمثيل تظهر خصائص الكلام البليغ فى مبانيه ومعانيه، وتجمع بين الإقناع والإمتاع، وهما غايتان تضفيان على الكلام الذى يؤديها جمالا وسحراً، وروعة وخلابة، وبها صارت الحكم والأمثال حكما

---

(١) نشر هذا البحث فى مجلة كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة العدد الثانى ١٤٠٤.